

العرب والصهيونية والقرن الحادي والعشرون

هينم الكيلاني (*)

- 1 -

من سمات هذا البحث «العرب والصهيونية والقرن، الحادي والعشرون» أنه يحاول استشراف المستقبل لمدى زمني جد محدود. وهي محاولة تكتنفها صعوبات جمّة، وتحيط بها مزالق الخطأ وسوء التقدير، ذلك أن المحاولة تجري في منطقة تكثر فيها الرمال والكثبان المتحركة والعواصف الهوجاء التي تغيّر، ما بين وقت وآخر، مواضع الرمال ومواقع الكثبان، حتى إن معالم الأمس قد تضيع غداً. وبالرغم من هذه السمات، تبقى المحاولة ذات مغزى، وبخاصة إذا ما استندت إلى ما يمكن أن يُعتبر عناصر ثابتة وتجارب ماضية وحالية، وهي عناصر وتجارب تستدعي الإشارة إلى ثلاث ملاحظات:

1 - إنّ تدرج المشروع الصهيوني صعوداً من حلم هرتزل (1897) إلى وعد بلفور (1917)، ومن قرار التقسيم (1947) إلى مؤتمر مدريد (1991)، وتدرّج الموقف العربي من شعار «ستبقى فلسطين عربية ولو أطبقت السماء على الأرض» (1948) إلى قرار قمة فاس (1982) فمؤتمر مدريد، يختزلان شريط أحداث مئة عام، نحن الآن في حال مراجعتها واستعادة دروسها وتذكّر مغازيها.

2 - إن الصراع العربي - الإسرائيلي، الذي اختزن المقاومة العربية للمشروع الصهيوني، باعتباره مشروعاً استعمارياً عنصرياً احتلالياً، يضيف إلى أشكاله ووسائله التقليدية أشكالاً ووسائل جديدة تتلاءم والمرحلة الانتقالية التي تغطي أواخر القرن العشرين ومطالع القرن المقبل.

3 - إن انتقال الصهيونية من قرن إلى قرن يصادف ابتداء قرن جديد في حياة

(*) رئيس تحرير مجلة شؤون عربية.

البشرية، وهي مصادفة تعني لنا أمرين يستحقّ كل منهما وقفة عنده: أولهما، أن نحاول تلمس تطور الصهيونية المستقرة في كيانها إسرائيل، وإمكانات ذلك التطور واحتمالاته وتأثيراته في منطقتنا العربية؛ وثانيهما، أن نفكر فيما نحن مخطّطون ومنظّرون وفاعلون في عالم القرن الحادي والعشرين.

في إطار هذه الملاحظات، يتناول البحث بعض مظاهر الفكر الصهيوني وهو يعبر إلى القرن القادم. ثم يرصد البحث عناصر الثبات وعناصر التجديد في الحركة الصهيونية وهي تخطط للمئة الثانية من عمرها، ولينتهي بعد ذلك إلى محاولة لاستشراف بعض آفاق المستقبل القريب.

- 2 -

إن أول ما يلقانا ونحن نعبّر عتبة القرن المقبل، ذلك التجدد الذي تعيشه الصهيونية وهي تنتقل إلى المئة الثانية من عمرها. ولقد كان شيمون بيريز، حتى رئاسته للحكومة الإسرائيلية، يخطّط لعقد مؤتمر ثانٍ للحركة الصهيونية في الذكرى المئوية لتأسيسها (1897 - 1997). وتحدّث عن خطته هذه لجريدة معاريف⁽¹⁾. فقال إنه يسعى إلى الدعوة إلى مؤتمر عالمي جديد للحركة الصهيونية، يرسم استراتيجية القرن المقبل. فالصهيونية، في رأي بيريز، استنفدت مهامها السابقة، وحقّقت أهدافها المحددة. وعليها صوغ برنامج عمل قومي جديد لليهود في القرن المقبل، يركّز على جعل إسرائيل مركزاً يهودياً روحياً، أي دولة ذات طابع ديني. وحينما تحدّث بيريز عن العرب انطلق من فكره الصهيوني العنصري في اتهامه العقل العربي بالقصور والعجز عن استيعاب معطيات التطور، وقال إن الشرط اللازم أمام العرب كي يصبحوا مثل نمور آسيا يتمثّل في استفادتهم من العبقرية اليهودية.

ولأن تيّار حزب العمل الذي كان يقوده بيريز لم يعد في نظر أغلبية المجتمع الإسرائيلي قادراً على الاستجابة لتطلّعات ذلك المجتمع بمواصلة تنفيذ المشروع الصهيوني، فقد استبدل به تيار حزب الليكود الذي يجسّد الأهداف الصهيونية، ويسعى إلى بلوغها بالعنف وقوة السلاح، ولو أدّى به الأمر إلى دفع منطقة الشرق الأوسط إلى حالة الحرب أو حافة الحرب. ويقود هذا التيار زعيم صهيوني جديد هو بنيامين نتنياهو، الذي نُعت في أجهزة الإعلام العربية بأوصاف هي مجموعة الرذائل والأخلاق التي تكوّن قوام شخصيته. وما يجدر بنا ملاحظته هنا - من خارج قاموس النعوت - هو أن نتنياهو يعمل لإحياء الصهيونية وتجديدها، ويجسّد مناقبها التي بُنيت عليها ثقافته وفكره وتفكيره، والتي ينبعث منها سلوكه. ومما زاد في جموح هذا الزعيم الصهيوني وتطرفه ووضوح عقيدته الصهيونية أن تكوينه الثقافي والأخلاقي تمّ في دائرة

(1) جريدة معاريف، 15/12/1995، نقلاً عن جريدة الحياة، 29/12/1995.

التعصب اليهودي والعنف الصهيوني من المجتمع الأميركي. ولقد أدى ذلك كله إلى صوغ شخصية تنتهاه صوغاً يتجسد فيه جماع العقيدة والمناقب الصهيونية وذروة الأخلاق البراغمية الأميركية.

ويعتبر كتاب نتنهاه مكان تحت الشمس⁽²⁾ وبرنامج حكومته الذي نال على أساسه ثقة الكنيست في حزيران/يونيو 1996 مرجعين رئيسيين للتعرف على المبادئ والأفكار الصهيونية التي تسعى القيادة الليكودية إلى إحياؤها وتجديدها.

يحتزن كتاب نتنهاه معظم شرور الصهيونية وأثامها، ومعظم رذائل العنصرية والنازية والفاشية. ففيه كم كبير من تزوير التاريخ، وتزييف الحقائق، واصطناع الأسباب للحروب والإبادة والتطهير العرقي. فالعالم في نظره مبني على الخير والشر، ولا سبيل إلى الأمن والاستقرار إلا بقضاء الخير على الشر، وأن إسرائيل ودول الحضارة الغربية هي الخير، وأن أعداء إسرائيل هم الشر⁽³⁾.

وتجزم الصهيونية المتجددة أن السلام الذي يمكن تحقيقه في الشرق الأوسط هو السلام المبني على قوة الردع. وفي حال فشل هذه القوة فلا بدّ من استخدام السلاح لإقامة السلام. ويرتبط إمكان ذلك كله بقدرة إسرائيل على الردع. ولا أمن قط إلا بتوافر تلك القدرة وباستخدامها حين الضرورة كوسيلة للحسم وفرض الأمن. «هذا هو السلام الوحيد الممكن تحقيقه حالياً بين إسرائيل والعرب»⁽⁴⁾. وتعتمد قوة إسرائيل في الردع على ثلاثة عناصر رئيسية هي: قوتها العسكرية، والإنذار المبكر، والأرض كعمق استراتيجي للانتشار والحماية والقتال. والأرض، في نظر الصهيونية المتجددة، تزداد أهمية في عصر الصواريخ، ولا تنقص. إنها تمنح إسرائيل قدرة الامتصاص لهجوم بري صاروخي بعيد المدى، والقدرة على المناورة ونقل القتال إلى أرض العدو⁽⁵⁾. إن اعتقاد الدول العربية بامتلاك إسرائيل السلاح النووي «يشكل مانعاً مهماً لردعها عن مهاجمة إسرائيل»⁽⁶⁾. «لقد كانت قوة الصهيونية وثباتها دائماً وأبداً المفتاح الحقيقي للسلام مع العرب»⁽⁷⁾.

ويرى نتنهاه «أن هضبة الجولان والضفة الغربية تمثّلان جداراً لا يمكن أبداً التخلي عنهما... وهما يمثلان عمقاً وارتفاعاً استراتيجيين ضروريين حتى في ظل امتلاك السلاح النووي. والتخلي عنهما هو انتحار لإسرائيل، وهما من القضايا غير القابلة

(2) بنيامين نتنهاه: مكان تحت الشمس، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان 1995. وقد نشر مركز الدراسات العسكرية بدمشق موجزاً لهذا الكتاب، دمشق 1996. وإلى الموجز تعود الإشارات المرجعية في هذا البحث.

(3) المرجع السابق، 18.

(4) المرجع نفسه، ص 61 - 62.

(5) المرجع نفسه، ص 65.

(6) المرجع نفسه، ص 67.

(7) المرجع نفسه، ص 83.

للتفاوض». أما الاستيطان فهو «حق مشروع لكل يهودي أن يبني ويمتلك ما يريد على أرض إسرائيل كلها». وجاء في برنامج حكومة الليكود «أن هناك أهمية وطنية للاستيطان في النقب وفي الجليل وفي هضبة الجولان وغور الأردن وفي يهودا والسامرة، لأن الاستيطان جزء من النظام الأمني لدولة إسرائيل وتعبير عن تجسيد الصهيونية».

وترى الصهيونية المتجددة أنه لا عودة إلى حدود 1967، ولا دولة فلسطينية غربي نهر الأردن، ولا سلب لمكاسب إسرائيل في «حرب الأيام الستة - 1967». ومن أجل إملاء هذه اللاتاءات على أرض الواقع، لا بدّ من تثبيت حق الصهيونية على أرض إسرائيل، «فهي مكان الشعب الإسرائيلي تحت الشمس». والصهيونية المتجددة في نظر نتنياهو هي «تجربة لنسج مستقبل جديد، لشعب عريق، بخيوط الإرادة القومية، التي عُزلت في فجر التاريخ، ولا تزال مستمرة حتى يومنا هذا»⁽⁸⁾.

- 3 -

لأن الصهيونية جعلت المنطقة العربية، بأرضها وأمتها وحضارتها ومستقبلها، موئل فكرها وبؤرة أهدافها ومحور أنشطتها ومصبّ جهودها، فإن الحاجة تبدو ماسة إلى نظرة جديدة تعيد التذكير بطبيعة ومقومات الحركة الصهيونية، وترصد عناصر الثبات والتغير في أهدافها ووسائلها. وهنا تبدو الركائز الفكرية والإيديولوجية للصهيونية في مقدمة ما يجب التركيز عليه، إذ بدون تلك الركائز ينتفي وجود الحركة ذاتها.

وثمة ركائز ثلاث بُنيت عليها الحركة الصهيونية منذ نشوئها، ولا تزال ثابتة مستقرة، تقتحم القرن الجديد مستندة إلى ما أنجزته على أرض الواقع. وهي ركائز متداخلة متشابكة بحيث يصعب، إن لم يكن مستحيلاً، تفكيك أوصالها وإعادة تركيبها فرادى.

وتُعتبر فكرة الأرض الموعودة أولى تلك الركائز. وقد اتّسمت هذه الفكرة، بالرغم من أسطوريتها، بقوة تعبئة واستقطاب كبيرة، مكّنتها من تخليق ديناميكية هائلة ساعد على توليدها التاريخ اليهودي ذو الطابع المأساوي. وما يهمننا هنا هو التأكيد على أن هذه الدعوة انطوت على تحديد واضح ودقيق لجوهر الأهداف الرئيسية للحركة الصهيونية، وهو تمكين يهود العالم من العودة إلى «أرضهم التاريخية» في فلسطين. وعلى الرغم من أن الحركة الصهيونية لم تحدّد منذ نشأتها حتى الآن خريطة واضحة لحدود الدولة المطلوب إقامتها، فإن بنية الدعوة الصهيونية والأسس الفكرية التي تقوم عليها لا تتركّان أي مجال للشك حول هذه القضية. فالمقصود هو «أرض إسرائيل» بحدودها التوراتية. ويبدو أنه لا يوجد أي خلاف بين الفصائل السياسية في إسرائيل حول هذه النقطة، بصرف النظر عن اختلاف طريقة أو أسلوب التعبير عنها. ويدلّ على ذلك موقفها الفعلي وليس الشكلي من قضية القدس ومن «حق اليهود في الاستيطان»

داخل أية بقعة من فلسطين التوراتية، على الرغم من وجود خلاف ظاهر بينها حول حدود أو خريطة إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي. فتلك قضية أخرى على صعيد آخر. ويلاحظ أن الحركة الصهيونية لا تعترف بأن المسألة اليهودية قد حُلَّت بقيام دولة إسرائيل أو حتى باستيلاء هذه الدولة على كامل فلسطين التاريخية. ذلك أن الحل النهائي للمسألة اليهودية يتحقق فقط - وفقاً لمنطوق المشروع الصهيوني وبنيته الفكرية - عندما تكتمل «عودة» الشعب اليهودي - كل الشعب اليهودي - إلى «أرض إسرائيل» من شتاته في المنفى، ولذلك تعتبر إسرائيل نفسها مسؤولة فعلياً، إن لم يكن قانونياً، عن كل يهود العالم وليس فقط عن هؤلاء الذين يستظلون بسيادتها. ومن ثم فإنها تنظر إلى يهود الخارج - وبصرف النظر عن جنسياتهم - وكأنهم ضمن رعاياها وتحت حمايتها، وأنها، وليس الدولة التي يحملون جنسيتها، هي التي تمتلك حقّ تمثيلهم والتحدّث باسمهم والمطالبة بحقوقهم في كل المحافل. ووفقاً لهذا المنطق صدر «قانون العودة» الإسرائيلي، الذي لا يوجد له نظير في العالم. ويقضي هذا القانون بحق أي يهودي في العالم، أيّاً كانت جنسيته، في أن يصبح مواطناً فور «عودته» إلى إسرائيل، ودون حاجة إلى أن يتقدّم بطلب للحصول على «الجنسية»⁽⁹⁾. وفي هذا المجال، يمكن القول إن المشروع الصهيوني لم يكتمل بعد، وذلك لسببين: أولهما أن الاعتراف الدولي، وبخاصة العربي والفلسطيني، بالسيادة الإسرائيلية على كل فلسطين التاريخية لم يتحقّق بعد. والسبب الثاني أن معظم يهود العالم ما زالوا يعيشون - من منظور الحركة الصهيونية - في حالة الشتات، ولم يعودوا بعد إلى «الوطن الأم». وهذه الحقيقة تفسّر أحد أسباب الرفض الصهيوني للرؤية العربية للتسوية. فهذه الرؤية تقوم على إمكان اقتسام فلسطين وأن يكون للشعب الفلسطيني دولته المستقلة، عاصمتها القدس.

ولا تشكّل فكرة الأرض الموعودة موضوعاً للاختلاف والتنازع في إطار التعددية الحزبية السياسية التي يعيشها المجتمع الإسرائيلي، ذلك لأن هذا المجتمع مجتمع صهيوني بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالات في الفكر اليهودي عندما يتعلق الأمر بإدارة الصراع مع «الأغيار». ومن ثم تصبح تعدديته هذه محكومة بالرؤية الصهيونية وليس بالمنهج الديمقراطي. ولنا في سلوكيات حزب العمل وحزب الليكود ما يؤكّد هذه الحقيقة. فهما يمثلان تيارين أساسيين تمحورت حولهما كل ألوان الطيف السياسي الصهيوني منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى اليوم، وهما: التيار العمالي والتيار التصحيحي. وبالرغم من حدة الانقسامات بينهما، لم يكن هذا الانقسام أبداً حول الأهداف والغايات النهائية للحركة الصهيونية، وإنما كان حول الوسائل والآليات والمواقف التكتيكية. الفرق الوحيد بينهما أن التيار العمالي غلب عليه الطالب البراغماتي، وتمكّن بمهارة من إخفاء غاياته النهائية من أجل حماية المشروع الوليد، وبخاصة في

(9) حسن نافعة: الأهرام، 20/6/1997.

مراحله الأولى، في حين غلب الطابع الإيديولوجي والعقدي على التيار التصحيحي. ولذلك كان هذا الأخير أوضح في أطروحاته دائماً ومن ثم أكثر صدقاً في تعبيره عن حقيقة المشروع الصهيوني وغاياته النهائية. إن استعادة شريط الأحداث والوقائع على أرض الواقع في فلسطين والأراضي العربية الأخرى المحتلة منذ انطلاق عملية التسوية في مؤتمر مدريد (30/10/1991)، والتي تناوب على العمل فيها حزب العمل ثم حزب الليكود، تؤكد هذه الحقيقة، وهي أن الحركة الصهيونية، بجناحيها الرئيسيين، ثابتة مستقرة على فكرة الأرض العربية وسلبها بقوة السلاح والهيمنة، وعلى فكرة التفوق العنصري من خلال الإيمان بأن اليهود «شعب الله المختار».

وتتمثل الركيزة المستقرة الثانية في الاستقواء بقوة استعمارية عالمية. فقد ولدت الحركة الصهيونية وعاشت على أساس أنها ذات علاقة ثابتة بالقوى الفاعلة والمهيمنة في النظام الدولي. ولهذا كان من الطبيعي أن تنتقل هذه العلاقة من قوة دولية إلى أخرى، بحسب حالة تلك القوة ومدى فاعليتها وسيطرتها على النظام الدولي. ويشكل هذا العامل أهم عناصر الثبات والاستمرارية في فكر وممارسات الحركة الصهيونية. فما كان بوسع إيديولوجية هذه الحركة، مهما بلغت قدرتها التعبوية، ولا بوسع أطرها المؤسسية، مهما بلغت قدرتها التنظيمية، أن تحقق كل ما أنجزته حتى الآن اعتماداً على قواها الذاتية وحدها. ولولا تبني قوى دولية عظمى للحركة الصهيونية وتعهدها لها بالرعاية التامة ووضع جميع إمكاناتها تحت تصرفها لما حققت هذه الحركة أي نجاح. ولذلك فإن مفتاح نجاح الحركة الصهيونية في الواقع يكمن في قدرتها على ربط مصالحها ربطاً عضوياً بمصالح القوى المهيمنة في النظام الدولي، وبخاصة تلك التي تتمتع بالنفوذ الأكبر في منطقة الشرق الأوسط. غير أنه لا ينبغي أن نستنتج من استمرار وجود هذا النمط من العلاقة العضوية بين الحركة الصهيونية وبين القوة الدولية الأعظم أن هذه الحركة لم تكن سوى مجرد أداة في يد القوة المهيمنة⁽¹⁰⁾. فالدراسة العلمية لتطور تلك العلاقة النمطية تثبت أنه كان هناك على الدوام عملية توظيف متبادل بين الطرفين، وأن الحركة الصهيونية كانت تظهر في معظم الأحيان ثقة كبيرة بالنفس تعكس قدراً من الإحساس بالقوة الذاتية، فضلاً عن قدرة تلك الحركة على الاعتماد على بدائل وقوى أخرى في حال حدوث تعارض في المصالح، أو إذا بدا للحركة الصهيونية أن تلك القوة الدولية ضعف شأنها وأقل نجمها.

لقد استوعبت الحركة الصهيونية دروس التاريخ، وبخاصة مصير الإمارات التي أقامها الصليبيون في المشرق العربي، حين انقرضت ولاياتهم، وانسحبت فلولهم، لأنه لم يكن لديهم جيش ميداني موحد ذو قيادة موحدة، وذو قدرة كافية على الاحتلال والاستعمار الإستيطاني. وحتى تتحاشى الصهيونية أن تلقى غزواتها هذا المصير، فقد

(10) المرجع السابق.

استندت إلى مجموعة من المبادئ، منها:

أ - القوة فوق الحق. واستناداً إلى هذا المبدأ، قرر هرتزل مؤسس الصهيونية أن «هذه الأمة اليهودية سوف تبقى. أما ما عداها فسوف يزول، بل ويجب القضاء عليه لأنه غير أهل للبقاء»⁽¹¹⁾.

ب - القوة ضرورة حتمية لبلوغ أهداف الصهيونية. والعمل السياسي سبيل لتعبئة الطاقات للحركة، وتجنيد الهيئات والمنظمات الصديقة من أجل المساعدة على بلوغ تلك الأهداف.

ج - الاستعمار الاستيطاني هو الوسيلة للاستيلاء على الأرض، وهو الذي يجسّد الإنجازات السياسية عن طريق فرض الوجود الصهيوني في فلسطين.

د - الحركة الصهيونية حليف عضوي للإمبريالية، ولا غنى لها عن الارتباط العضوي بالدول التي تجسّد الإمبريالية وممارساتها.

هـ - العمل العسكري ضرورة لا غنى عنها لفتح المجال أمام الاستعمار الاستيطاني، ليستولي على الأرض، وليحمي وجوده وإنجازاته. والرابطة بين العمل العسكري والاستعمار الاستيطاني وثيقة لا انفصام لها. فالقوة العسكرية هي الوسيلة التي توفر للاستعمار الاستيطاني النشوء والوجود. وعلى هذا الاستعمار أن يوفر القاعدة الاجتماعية التي تسند القوة العسكرية، وتمدّها بالعناصر اللازمة لحياتها ونموها.

يمثّل الاستعمار الاستيطاني في فلسطين التطبيق العملي للصهيونية. وتبقى المقولة التي قالها الزعيم الصهيوني جابوتنسكي في العام 1933: «الصهيونية هي استيطان، ولذا فهي تحيا وتموت مع القوة المسلحة»، تبقى مقولة لها مغزاها وبعدها الاستراتيجي في اختزال مسألة الغزوة الصهيونية كلها.

ويمكن القول إن مسألة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني تشكّل المحور المادي للصراع العربي - الصهيوني، منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم. وطوال هذه المدة، شكّل الاستيطان، بالنسبة إلى الصهيونية، الوسيلة والهدف معاً. وأتصف بثنائية العمل في وقت واحد: عملية البناء الصهيوني وعملية هدم المجتمع العربي القائم⁽¹²⁾.

وبالرغم من أن مئة عام مرّت على المشروع الصهيوني، وبالرغم من اختلاف المراحل التي مرّ بها وتنوّعها، ظلت وسائله دون تغيير أساسي: الاستيلاء على الأرض بشتى الطرائق، ونزع العرب من أرضهم بمختلف وسائل الإرهاب والقهر، والتوسع

(11) ثيودور هرتزل: دولة اليهود، نيويورك 1904، نقلاً عن: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام: العسكرية الصهيونية، ج 2، القاهرة، 1974، ص 23.

(12) عبد الرحمن أبو عرفة: الاستيطان التطبيق العملي للصهيونية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ص 2.

أرضاً وزرع بؤر الاستيطان ترسيخاً للاحتلال. إن حروب إسرائيل، وبخاصة حرب 1967، وعملية التسوية السلمية الجارية الآن، شاهدان على ذلك.

وإذ ننتقل الآن إلى التطرق إلى الركيزة الثالثة الثابتة المستقرة التي بنيت عليها الحركة الصهيونية، وهي الإرهاب، فإننا نجد أنفسنا أمام تراث جد ثري ومتنوع في فكره وخطته ووسائله ووقائعه، وبخاصة أنه كان الوسيلة الأولى التي استعملتها الصهيونية لتحقيق غرضها الأول، وهو إقامة إسرائيل. لذا اقترن إنشاء دولة إسرائيل بأبشع أشكال الإرهاب وأفظع أنواعه. ثم واصلت إسرائيل الإرهاب، فكراً ووسيلة وأسلوباً، ضد الشعب العربي الفلسطيني والدول العربية.

وتاريخ الحركة الصهيونية وإسرائيل حافل بسلسلة طويلة من أعمال الإرهاب والقتل الجماعي. فقد نشر قادة الصهيونية وزعماء إسرائيل ومفكروهما مؤلفات كثيرة، بحثوا فيها الإرهاب، كعقيدة وسياسة ووسيلة، وتحدثوا عن المنظمات الإرهابية وإيديولوجيتها ونشوتها وتنظيمها وأهدافها وإنجازاتها والجرائم التي ارتكبتها. ويمكن القول إنه ليس في العالم القديم أو المعاصر تراث عسكري أو سياسي، لأي شعب من الشعوب، يشبه التراث الصهيوني في الإرهاب.

وعندما فكّرت الصهيونية في إقامة دولة يهودية خالصة في فلسطين، رأت أن ذلك لن يتم إلا بإبادة سكان البلاد الأصليين، أو طردهم، عن طريق الإرهاب. وعلى هذا، شكّل الإرهاب والعنف، منذ البداية، صلب الخطة الصهيونية الرامية إلى احتلال فلسطين.

وهكذا استعملت الصهيونية في غزوها فلسطين، ومن ثم دولة إسرائيل في تثبيت كيانها وتوسيع حدود احتلالها وتفريغ فلسطين من أهلها، أساليب إرهابية كثيرة استمدتها من الفكر الصهيوني والتقاليد الموروثة في هذا الفكر. فالمذابح الجماعية التي تحدثت عنها كتب اليهود القديمة هي النموذج الذي استخدمته وسارت على هديه فيما بعد المنظمات الصهيونية وإسرائيل في دير ياسين وقبة وغزة والدّ والرملة ونحالين وكفرقاسم (في فلسطين) والفاكهاني وصبرا وشاتيلا والجنوب اللبناني وقانا (في لبنان) وسواها. وهي المذابح التي تمّت كلها لتحقيق هدف واحد هو إبادة الشعب الفلسطيني وتصفيته جسدياً بالقتل والتجهير.

وإذا كانت مذابح الفاكهاني وصبرا وشاتيلا والجنوب اللبناني وقانا (1981 - 1982 - 1996) قد استهدفت التصفية الجسدية للمقاومة الفلسطينية والشعب الفلسطيني في المنافي، وللمقاومة اللبنانية ضد الاحتلال، فإنّ مذابح دير ياسين (1948) وكفرقاسم (1956) والخليل (1994) كانت تستهدف إضافة إلى التصفية الجسدية للشعب الفلسطيني تهجير من لم تظلم المذابح عن طريق بثّ الرعب في نفوسهم ودفعهم إلى مغادرة البلاد.

ولعلّ أكثر ما يجذب الانتباه في سلسلة المذابح التي نفّذتها الصهيونية وإسرائيل ضد الشعب الفلسطيني أنّ المنفذين كانوا دائماً يعرفون ما يفعلون، وأن اتجاه العنف والإرهاب والقتل الجماعي الذي تَرَبَّثَ عليه الكوادر الأولى المؤسّسة للجيش الإسرائيلي

ظَلَّتْ - ولا تزال - تتناقله أجيال الجيش الإسرائيلي والقيادات الصهيونية والإسرائيلية جيلاً بعد جيل.

والإرهاب الصهيوني/الإسرائيلي ليس وليد اليوم أو الأمس. فهو يضرب بجذوره في أعماق الفكر والممارسة الصهيونيين، وفي جذور دولة إسرائيل وقيادتها وأجيالها ومؤسساتها وأحزابها ومجتمعها المدني. وحينما يستعرض أي باحث التاريخ الفكري والوقائعي للصهيونية وقادتها، ومن ثم قادة دولة إسرائيل من بعدهم، فإنه يستنتج الملاحظات الآتية:

1 - تأسس المشروع الصهيوني، سواء في مرحلة صياغة مفهومه أو مرحلة رسم خطه، أو مرحلة التنفيذ، على المبادئ الأولية التي بناها الفكر اليهودي طوال تاريخه، وأبرزها أن اليهود هم شعب الله المختار، وأن سائر البشرية هم الأغيار الذين يأتون في سلم الشعوب بدرجات هي أدنى من مرتبة شعب الله المختار، وأن من حق هذا الشعب أن يستخدم الأغيار لخدمته ومن أجل مصلحته.

2 - انبنى على هذه النظرية العنصرية ما يترتب عليها من نوازع وأخلاق، كالحقد والكره والاستعلاء والاستكبار وما ماثلها من أخلاق تولدها العنصرية، وتجسدها تيارات وحركات كانت تمثل في التاريخ القديم والحديث والمعاصر فلسفة ومرجعية لبعض أنظمة الحكم، كمثل النازية والفاشية والعنصرية، في ألمانيا وإيطاليا وجنوبي أفريقيا. وقد زادت الصهيونية عليها جميعها بأن انفردت بتأسيس دولة جوهرها العنصرية ووسيلتها الإرهاب.

3 - حينما تعاملت الصهيونية مع العرب، كانت قد صنفتهم في درجة دنيا في سلم الأغيار، وهو ما أباح لقادة الإرهاب الصهيوني/الإسرائيلي أن يستخدموا جميع الوسائل الممكنة للقتل والإبادة والاغتيال والطرد والإبعاد والاعتقال والتعذيب والنسف والتدمير والتخريب. وبذلك تأسست مدرسة للإرهاب خاصة بالصهيونية وإسرائيل، ومتميزة عن غيرها من المدارس الإرهابية القديمة والحديثة والمعاصرة.

4 - لازم الإرهاب، بمختلف أشكاله وأنواعه، المشروع الصهيوني، منذ بدأ زعماء الصهيونية التفكير فيه، وبخاصة ثيودور هرتزل. ولم تكن ملازمة الإرهاب للمشروع الصهيوني مؤقتة أو مرحلية، وإنما كان الإرهاب يشكل جوهر المشروع، بحيث إن المشروع كان سيفقد القدرة على التجسد على الأرض لو لم يكن الإرهاب بمختلف أشكاله وأنواعه وأدواته، سبيله إلى التنفيذ. ومن هنا يُلاحظ ذلك التوارث في الإرهاب بين قادة الصهيونية وزعماء إسرائيل، توارثاً لا انقطاع فيه ولا تباطؤ في حركته ولا نزول أو انخفاض في خطه البياني، وبالتالي لا تراجع في فكر الإرهاب، ولا تناقص في قادته، لا من حيث الكم ولا من حيث النوع. بل يُلاحظ تصاعد في الخط البياني في حركة الإرهاب، وتكاثر في أساليبه ووسائله، وتنوع في أحداثه، وتزايد في قادته ورجاله، حتى

أن الإرهاب غدا عملاً يومياً عادياً، لا عيب أخلاقياً فيه، ولا رادع قانونياً يحدّ من غلوّه ووحشيته.

5 - من الثابت أنه لا يوجد في العالم كلّ ما يماثل إسرائيل في ممارساتها لإرهاب الدولة. ذلك أن إسرائيل نفسها تأسست بالإرهاب، وعليه، واستمرت في استخدامه، لأنه يشكل مقوّماً رئيسياً من مقوماتها، وأساساً من أسس استراتيجياتها العسكرية والسياسية. وما من مسؤول صهيوني أو إسرائيلي، إلا كان إرهابياً في الفكر، أو الممارسة، أو في كليهما معاً. ومن يراجع تاريخ الإرهاب الصهيوني والإسرائيلي، يجد أن أسماء معظم القادة والمسؤولين الإسرائيليين هم قادة للمنظمات الإرهابية السرية والعلنية، أو مسؤولون أو عاملون فيها.

وما بين إرهاب الصهيونية وإسرائيل ومذابحهما ضد الشعب الفلسطيني، منذ أن بدأت الغزوة الصهيونية وحتى العام 1993، هناك 261 ألف شهيد و186 ألف جريح، و161 ألف معوق، وقرابة مليونين من الفلسطينيين هُجّروا بقوة السلاح والإرهاب على مدى نصف قرن، وأصبحوا لاجئين. وهؤلاء الذين أُخرجوا - وهم مليونان - أصبحوا الآن خمسة ملايين وأربعمئة ألف نسمة⁽¹³⁾.

ولأن الإرهاب يشكّل جوهر الصهيونية كعقيدة، ووسيلتها كخطة للتنفيذ، كان من الطبيعي أن يطرّ هذا الإرهاب نفسه، وبيّدت أدواته بما يتناسب مع المتغيرات الدولية والإقليمية، ومع متطلبات كل مرحلة من مراحل عمله:

1 - ففي مرحلة الغزو الصهيوني لفلسطين، كانت الحاجة ملحة لدفع اليهود من الشتات إلى الأرض الجديدة. وفي هذه المرحلة، لم تتورع الصهيونية عن إرهاب يهود الشتات أنفسهم حتى لا يكون أمامهم سبيل لإنقاذ حياتهم سوى الهجرة إلى فلسطين.

2 - وفي مرحلة العقاب الجماعي، فرضت إسرائيل عقوبة الحصار على الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، لتجويعه وإفقاده مقومات العيش. وبذلك انخرطت إسرائيل في شبكة الحصار التي خطّطت لها الولايات المتحدة الأميركية في المنطقة العربية، فتعاقب هذه الدولة العربية أو تلك بفرض حصار عليها يطال الدولة كمؤسسة ويعرّض شعبها للحرمان والفقر والجوع والمرض وبؤس العيش.

3 - وفي مرحلة أخرى وجدت إسرائيل أن التلويح بامتلاك السلاح النووي مفيد كقوة رادعة ضد العرب.

وهكذا يفتخر قادة إسرائيل بإرهاب الضمير العربي، أمة وقيادات ودولاً، ذلك لأن الترسانة النووية الإسرائيلية، ليست أداة للردع. إنها أداة للإرهاب النووي. لقد استخدم

(13) محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الكتاب الأول، دار الشروق، القاهرة، 1996،

تعبير الردع النووي بين الدول النووية في فترة الحرب الباردة كوسيلة لمنع استخدام السلاح النووي، في حين إن إسرائيل تستخدمه للإرهاب والابتزاز.

وما كان لهذا الإرهاب الصهيوني/الإسرائيلي أن يبلغ هذا المستوى من التنوع ومن القدرة على استخدام أدواته، لولا أنه يحظى بالتأييد الدائم والمتنوع من الولايات المتحدة الأميركية، وهو تأييد فاق كل ما عرفه التاريخ في العلاقات بين الدول من تأييد مادي ومعنوي. ويبدو أن هذا التأييد سيبقى شاملاً وفريداً في التاريخ المعاصر.

لقد تطور التعاون الاستراتيجي بين الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل تطوراً لا يبدو أنه سيبلغ مستوى أو حداً أو سقفاً ينتهي عنده، وإنما هو متوالد بعضه من بعض، صاعد إلى الأعلى ومتسع أفقياً، دوماً. وهدفه الأول أن تبقى إسرائيل هي الأقوى من جميع الدول العربية مجتمعة، والمتفوقة عليها، عسكرياً وتكنولوجياً وحضارياً، وأن تكون الدولة الوحيدة التي يحق لها أن تحوز السلاح النووي، وأن يحرم ذلك على أية دولة أخرى في المنطقة، أو أية دولة إسلامية، وأن يكون لإسرائيل حق تدمير أي مشروع عربي أو إسلامي يمكن أن يفيد، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، احتمال تصنيع سلاح نووي. وتشير جميع الدلائل إلى أن هذا الدعم اللامحدود سينتقل مع الصهيونية وإسرائيل إلى القرن القادم.

- 4 -

لقد استطاعت الصهيونية أن تخفف العبء عن الاستعمار الغربي في المنطقة العربية، فلم يعد هناك داع لأن تغزو الجيوش الأجنبية أرضنا، بعد أن أصبح التهديد الخارجي خطراً مستوطناً ومقيماً في قلب الوطن العربي.

وما يجذب النظر في هذا الخطر المقيم أن الصهيونية، وهي جوهره، تغير أدوارها بما يتلاءم مع المتغيرات الدولية. ففي حين عرضت الصهيونية على الخلافة العثمانية خدماتها المالية والسياسية مقابل السماح لها باستعمار فلسطين، أصبحت بعد ذلك الضامن للإمبراطورية البريطانية مقابل إصدار وعد بلفور. ثم انتقلت لتكون الضامن للمصالح الأميركية بعد الحرب العالمية الثانية. وتكفلت بتطويق حركة القومية العربية ومحاصرتها وتدمير تحركاتها وإنجازاتها، بقوة السلاح حيناً وبالتخريب حيناً آخر، وذلك طوال مدة الحرب الباردة. وهي اليوم تتولى القيام بدورين، أولهما تغيير هوية المنطقة العربية واستبدال هوية إقليمية بها، وثانيهما مجابهة الإسلام كعقيدة نضالية تحررية بدعوى مكافحة الإرهاب⁽¹⁴⁾. والصهيونية تقوم بهذين الدورين أصالة عن نفسها ووكالة عن الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة.

(14) انظر كتاب بنيامين نتنياهو: محاربة الإرهاب، ترجمة عمر السيد وأيمن حامد، دار النهار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1996.

ثمة مقولة تذهب إلى أننا دخلنا منذ سنوات قليلة عصر سقوط الإيديولوجيا بمختلف أنواعها وأشكالها أمام علوم التقانة (التكنولوجيا)، وأن ذلك السقوط أهم سمات القرن الحادي والعشرين. ولكن الصهيونية، كإيديولوجيا، لا تذهب هذا المسلك، حينما تحاول أن تجد نفسها بصياغات أكثر قدرة ومرونة على تحقيق أهدافها بالتلاؤم مع جذائد العصر.

إن أحد أهم موضوعات العمل الصهيوني في القرن القادم، هو تحويل فلسطين كلها إلى دولة خالصة لليهود دون غيرهم. وهو هدف صهيوني قديم، يحييه قادة الصهيونية الجدد، ويجسدونه في مشروع الجنرال آريئيل شارون، وخلاصته ترحيل الشعب الفلسطيني من فلسطين. وتتوافر ثلاثة عوامل لتنفيذ هذا المشروع: أولها أن القيادة الإسرائيلية الليكودية جاهزة لتنفيذ المشروع بخلق الأسباب المؤدية إليه، وثانيها أن العجز العربي قد لا يبلغ حد القدرة على إجهاض المشروع، وثالثها أن مثلين حيّين أشرف عليهما النظام العالمي الجديد، أحدهما في أفريقيا حينما خلعت قبائل الهوتسي والتوتو من مواطنهم وتقاذفتهم الغابات. وثاني المثلين وقعت أحداثه في قلب أوروبا، حيث خلعت جذور أربعة ملايين من البشر من مواطنهم في يوغوسلافيا السابقة. وقد رافق ذلك كله في المثلين مذابح جماعية للتطهير العرقي.

مرت الصهيونية، كحركة منظمة، بمراحل أربع رئيسية، كان أولها الصهيونية الهرتزية (1895 - 1905)، ثم الصهيونية العملية (1907 - 1917)، فالصهيونية التصحيحية بقيادة جابوتنسكي الذي نادى بتصحيح برنامج المنظمة الصهيونية بجعل مساحة الدولة المنشودة تضم ضفتي نهر الأردن وليس الضفة الغربية فقط، وبتأليف جيش يهودي يعمل لتحقيق الهدف بقوة السلاح. وتلا ذلك نشوء الصهيونية المقاتلة⁽¹⁵⁾ (1939 - 1948).

وإذا كانت الصهيونية قد تجسدت في دولة إسرائيل كجهاز منفذ لأهدافها، فإن طغيان مفهوم الدولة ومؤسستها العسكرية ومصالحهما استدعت حيناً بعض التساهل في تطبيق مبادئ الصهيونية. بيد أن حزب الليكود يتولى الآن إحياء تلك المبادئ وصياغة برنامج المشروع الصهيوني بما يتلاءم مع المتغيرات الدولية والإقليمية والعربية.

وكانت مجموعة من الخبراء الأميركيين برئاسة «ريتشارد بيرل» المساعد السابق لوزير الدفاع في إدارة الرئيس الأميركي الأسبق ريغان، صاغت وثيقة عنوانها «تغيير كامل: استراتيجية إسرائيل الجديدة نحو العام 2000»⁽¹⁶⁾. وقد أوصت المجموعة الحكومة الجديدة في إسرائيل بإنهاء عملية السلام، والبدء بحملة حرب باردة في الشرق الأوسط على النمط الريغاني، ذلك أن إسرائيل، كما ورد في الوثيقة «تتمتع بفرصة إجراء تغيير

(15) مصطلح أطلقه دافيد بن غوريون على الفترة من صدور الكتاب الأبيض (1939) إلى قيام دولة إسرائيل (1948). انظر: مؤسسات الدراسات الفلسطينية: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، بيروت، 1973، ص 89.

(16) جيمس زغبى: جريدة الشرق الأوسط، 23/9/1996.

كامل. فهي تستطيع صياغة استراتيجية وعملية سلام تعتمد على أساس فكري جديد تماماً، أساس يحتفظ بالمبادرة الاستراتيجية ويعيد بناء الصهيونية».

وكانت إسرائيل، في عهد حكومة إسحاق رابين في العام 1995، فكرت في أن تقيم حاجزاً على شاكلة حائط برلين الذي سقط في تشرين الثاني/نوفمبر 1989، يفصل ما بين المستعمرات الإسرائيلية والسكان العرب في الضفة الغربية وقطاع غزة، ويشتمل على حواجز ودوريات ونقاط تفتيش وأجهزة رادار وتقانة مراقبة متطورة وتيار كهربائي والغام ضد الأفراد، وما إلى ذلك من وسائل. وقدّرت تكاليف ذلك الحاجز بحوالى 470 مليون جنيه استرليني⁽¹⁷⁾. وبالرغم من أن هذا الحاجز - كما وصفه عضو في مجلس العموم البريطاني⁽¹⁸⁾ - لا يعدو أن يكون جنوناً وخطة مخبولة محكوماً عليها بالفشل، فقد يجد في إطار الصهيونية المتجددة من يحيي خطته ويدعو إلى تطبيقها. وليس الحصار الذي فرضته إسرائيل في صيف 1997 على الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع سوى شكل من أشكال هذا الحاجز، وتمهيد لتطبيق سياسة الفصل العنصري التي لقيت نهايتها على يد المناضلين الأفريقيين في جنوبي أفريقيا.

وتدلّ الأنشطة والممارسات التي تعيشها الصهيونية وأداتها إسرائيل على أن الحركة الصهيونية، وهي تحتفل ببدء المئة الثانية من عمرها، تخطّط وتضع تصوراتها لما تنوي فعله في القرن القادم. فالمشروع الصهيوني لم يكتمل بعد، وما أنجزه من إنشاء الدولة على جزء من أرض فلسطين وترسيخ لكانها وجعلها قوة إقليمية كبرى ووحيدة بسلاحها النووي، وما ينوي تحقيقه كهدف جدّ قريب بكسر إرادة المقاومة لدى العرب وحملهم على التسليم بحقّ الصهيونية في كل فلسطين وفي قيادة المنطقة، ليس سوى بعض مراحل المشروع الصهيوني.

ولقد عقد أكثر من 300 مندوب من مختلف المنظمات اليهودية، إضافة إلى مسؤولين إسرائيليين، مؤتمر المئوية الصهيونية الثانية في بازل بسويسرا (26 - 30/8/1997)، ليستعرضوا «إنجازات» الحركة الصهيونية في مئة عام، وليصوغوا برامج العمل الصهيوني في المئة الثانية⁽¹⁹⁾.

وإذا كان المشروع الصهيوني تميّز بوضوح الرؤية ودقة التخطيط الاستراتيجي ومرحلة التنفيذ، بحيث استطاع أن يحقق بعض النجاحات والإنجازات، فإن عقبات واجهت تنفيذه وأثّرت على توجهاته وآلياته على مدى الأعوام المئة الماضية. ومن بين تلك العقبات إيمان الجماهير العربية - بالرغم من ضمور فعلها وقصور مبادراتها - بأنها تواجه غزوة استعمارية قوية وذات امتداد زمني قد يكون طويلاً. ومن بين تلك

(17) جريدة The Guardian البريطانية، 25/1/1995.

(18) سيريل تاروسند: جريدة الشرق الأوسط، 8/2/1995.

(19) جريدة الحياة، 26/8/1997.

العقبات أيضاً استعادة القوات العربية عزيמתها وإرادتها في أعقاب كل هزيمة عسكرية، سواء بعد 1948 أو 1956 أو 1967. ومن أهم تلك العقبات أن حرب 1973 وضعت حداً لقدرة إسرائيل على تحقيق المشروع الصهيوني، الذي بدأ انحساره الحقيقي في إثر تلك الحرب. ثم جاءت حرب لبنان في العام 1982، لتؤكد إسرائيل بعد ثلاث سنوات من القتل والقتال، أن إرادة المقاومة الوطنية أقوى من الآلة العسكرية الإسرائيلية المدعومة بالسلاح الأميركي والتقانة العسكرية الأميركية. ثم انتهت إسرائيل إلى النتيجة نفسها أمام انتفاضة الشعب الفلسطيني (1987 - 1991).

وعلى المستوى الدولي، كان إصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة في العام 1975 قرارها الذي يعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري (القرار رقم 3379 في 10/11/1975) حدثاً تاريخياً قيّم الصهيونية وأنزلها مكانتها في سياق التاريخ المعاصر. وبالرغم من أن الجمعية العامة عادت عن قرارها هذا فآلغته في العام 1991، لا يزال لهذا التقييم الدولي قيمته التاريخية والمعنوية.

وتنسب الصهيونية الأضرار التي لحقت بها وبسمعتها إلى الضغوط التي مارسها العرب في إثر حرب 1973، وإلى نجاحهم في العام 1975 باستصدار القرار المذكور. ولهذا صمّمت الصهيونية والولايات المتحدة والقوى الغربية الأخرى على إسقاط هذا القرار، والسعي إلى إعادة الحركة الصهيونية إلى تاريخ القرن العشرين كحركة تحرر وطني بعد أن أزلت عنها عار العنصرية والتمييز العنصري. ولا بدّ، في الوقت نفسه، من انتزاع جذور بؤر الشر في الشرق الأوسط، تلك الجذور التي تتمثل في القومية العربية والإسلام الأصولي⁽²⁰⁾. وهذا هو الدور الجديد الذي التزمت الصهيونية القيام به في القرن الحادي والعشرين.

وفي إطار إعادة طابع التحرر الوطني إلى الحركة الصهيونية، يشبّه ننتياهو طرد العرب من إسبانيا في القرن الخامس عشر بطردهم من فلسطين في القرن العشرين. فكلتا العمليتين حركة وطنية تحررية من وجود استعماري⁽²¹⁾. وهنا يبدو منحى التجديد في صهيونية ننتياهو، إذ سبقه، ولكن إلى عكس هذه الفكرة، زعيم صهيوني من الأبناء المؤسسين، هو حاييم وايزمن، الذي قال - قبل مدة طويلة من قيام إسرائيل - إن العالم سيصدر حكمه على الصهيونية والصهيونيين على أساس الطريقة التي يعاملون بها عرب فلسطين⁽²²⁾.

لا ريب في أن قولة وايزمن هذه كانت تنطوي على الحكمة والتنبيؤ بالمستقبل، بل الخشية والتحسّب من هذا المستقبل. فقد انقضى أكثر من قرن على بدء الغزوة

(20) ننتياهو: مكان تحت الشمس، مرجع سابق، ص 44.

(21) المرجع السابق، ص 28.

(22) مايكل آدامز (مع مجموعة باحثين): الصهيونية والعنصرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977، ص 283.

الصهيونية لفلسطين، وحوالى نصف قرن على تحقيق الهدف الأول من المشروع الصهيوني، وهو تأسيس دولة إسرائيل، قيل أن يتمكّن العالم من التعرّف - بعض المعرفة وبعض الأحيان - على جوهر الصهيونية وأسسها ومقوماتها وأهدافها، وعلى سياسات دولة إسرائيل واستراتيجياتها، وعلى الوسيلة الأولى والرئيسية التي استخدمتها الصهيونية وإسرائيل، وهي وسيلة الإرهاب، وما يستدعيه من أدوات العنف والقوة والبطش. ولقد بلغ الأمر بالصهيونية أن استطاعت بالإرهاب وأدواته، أن تؤسّس دولة. كما استطاعت تلك الدولة، بالإرهاب وأدواته أيضاً، أن ترسّخ كيانها، وتوسّع حدودها، وتمدّ هيمنتها إلى ما بعد تلك الحدود.

- 5 -

حين يحاول الباحث استشراف ما بعد الأرض التي يقف عليها، وقد لمس ما أمامه من عثرات وصعاب ومزالق، وانتشر الضباب يغطي مجال الرؤية، فإن احتمال الخطأ يفوق احتمال الفوز والخروج بسلامة من حقل العثرات والمزالق، وبخاصة حينما تبين أمامنا سمات البيئة الإقليمية التي يُتوقّع أن تسود في المنطقة في فترة عبورنا إلى القرن الحادي والعشرين، تلك السمات التي يمكن اختزالها في النقاط التالية:

1 - استمرارية السيطرة الغربية، وبخاصة جناحها الأميركي، على المنطقة العربية والحزام المحيط بها، مع احتمال تغيير بعض أشكالها وأنماطها حسب الموضع. ولا تزال السيطرة الغربية، وليلدها إسرائيل، في أواخر القرن العشرين، تزدادان تأثيراً في رسم الخريطة الجغرافية للمنطقة.

2 - استمرارية الأهمية الاستراتيجية للمنطقة. ويعني هذا أن القوى الغربية مستعدة للمقاتلة والمنافسة إذا ما ظهرت قوى عربية أو إقليمية أو خارجية تحاول مزاحمة القوى الغربية أو الإضرار بمصالحها.

3 - التلازم بين تأصيل وجود إسرائيل في قلب المنطقة العربية، وتطوير دورها، وحلّ القضية الفلسطينية حلاً يضمن تصفية عناصرها الحادة من جهة، وبين مشروع إعادة صوغ الخريطة الجغرافية للمنطقة وفق مشروع نظام إقليمي مقترح للشرق الأوسط من جهة أخرى.

4 - توافر متغيّرات دولية وإقليمية وبعض المتغيّرات العربية لتحقيق هدف تأصيل إسرائيل، وبناء المشروع الشرق أوسطي على مرتكزات وظيفية اقتصادية وسياسية وأمنية إقليمية فوق قومية.

وتزداد هذه السمات وضوحاً وفاعلية، بالتركيز على العنصر الاحتلالي الاستعماري الصهيوني فيها، وهو إسرائيل، التي تصون احتلالها فلسطين وأراضٍ عربية أخرى بواسطة قوتها العسكرية المسلحة بنظرية خاصة للأمن. ويشكل البعد الجغرافي أحد أهمّ مكونات تلك النظرية. واستناداً إلى المراجع العسكرية الإسرائيلية ووقائع

الحروب العربية - الإسرائيلية يمكن القول إن ذلك البعد يتألف من ثلاث دوائر:

- 1 - الدائرة الأولى هي إسرائيل 1948 وما قد تمتد إليه سيطرتها الأمنية من أراضٍ عربية محتلة ملاصقة لأراضي إسرائيل 1948.
- 2 - الدائرة الثانية هي دائرة الحدود الآمنة. وفيها تنزل معاهدات السلام العربية - الإسرائيلية منزلة الراسم والضامن لتلك الحدود.
- 3 - الدائرة الثالثة هي الدول المحيطة بالدول العربية. وتدخل في هذا النطاق دول كثيرة آسيوية وإفريقية، تسعى إسرائيل إلى التعاون معها وكسبها إلى جانبها سياسياً وأمنياً واقتصادياً. وتعتبر الاتفاقية العسكرية التركية - الإسرائيلية إحدى أهم وأحدث النماذج في هذه الدائرة الثالثة.

نضيف إلى ذلك سمتين أخريين، تعود أولاهما إلى مطلع القرن العشرين، في حين تتصل الثانية بأواخره:

- 1 - قد يكون مناسباً أن نعترف بأن قرناً كاملاً من المواجهة بين العرب والصهيونية التي كان نجيب العازوري نبّه إليها في كتابه **يقظة العرب** منذ العام 1905، كانت حصيلته إحباط آمال الأمة في الوحدة والنماء، وضياح بعض حقوقها، في حين تقدّمت الصهيونية وتجدّرت في بعض أنحاء المنطقة. وما ذلك إلا لأن البنية الحضارية العربية التي واجه بها العرب إسرائيل كانت على مدى القرن كلّ بنية مأزومة. فطوال هذا القرن لم يتمكّن العرب من تكوين بنية اقتصادية اجتماعية دفاعية متينة يكون في إمكانها تحقيق أمن الوطن العربي وتقدمه، كما لم يبلغوا حدّ بناء الدولة المؤسسية الحديثة.

- 2 - سندخل القرن الحادي والعشرين ونحن حاملين إرث مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط (1991)، حيث تمّ التفريق بين نوعين من السلام، سلام سياسي، وآخر اقتصادي. ولقد جهدت سورية من أجل أن تربط بين السلامين فيكون الثاني وليد الأول، وليساً خطين متوازيين مستقلّ أحدهما عن الآخر. وهذا الإرث الذي نحمل نتائجه يصوغه مخططوه في مشروع نظام جديد للشرق الأوسط، وتجهّد الصهيونية لفرضه بكلّ قواها. وهو نظام يفقد مقومات الكينونة الطبيعية، فالمصالح فيه تتعارض، والأمن يفرضه السلاح النووي، والثقافة تمثّل عالمين مختلفين كل الاختلاف إن لم نقل إنهما متضادان.

وعلى أساس هذه السمات التي يلقّها ضباب زاخر بمحددات الرؤية وممانعات الإبصار، ليس سهلاً ولا ميسوراً أن يستشرف الباحث، بثقة واقتدار، بعض آفاق المستقبل، ذلك أن البدائل أمامنا جدّ محدودة، إلا إذا لجأنا إلى التنبؤ والحدث، أو أعملنا البصيرة كما يفعل أهل الصوفية والتجليات.

لقد تجاوزت الأزمة التي تعانيها الأمة دائرة البدائل، أو أن الأزمة بلغت درجة من

الحديّة والتعقيد جعلت البدائل التي تدخل في دائرة الإمكان المنظور غير كافية أو غير صالحة للخلاص من الأزمة. وأنذاك، يبقى الأمل منوطاً بقيادة قومية تجد الحل من خارج دائرة الإمكان المنظور. وهذا هو الأمل الذي قد يضيء بعض السبيل إلى المستقبل. ومما يولد في الفكر والنفس هذا الأمل، ويحيله إلى واقع ملموس، هو أن الأمة العربية أثبتت في تشرين الأول/أكتوبر 1973، على سفوح الجولان وربوع سيناء وعند منابع النفط كفاءة وإقتداراً شكّلاً رسالة من الحاضر إلى المستقبل، مغزاها أن العرب قادرون على الدفاع عن مصائيرهم، وعلى التفكير والتدبير لمستقبلهم. وهذان الكفاءة والإقتدار يُفترض بأنهما ما زالا متوافرين لتوظيفهما في ميدان التصدي للصهيونية المتجددة في القرن الجديد.

في إطار هذه الملامح من بعض الإحباط وبعض الأمل، ومع توافر إرادة الحياة في النهوض والتقدم والمقاومة والنصر، نلمح أمامنا بديلين، أحدهما يستمد قوته وضعفه من واقعنا الحاضر، وثانيهما يستمد قوته وضعفه أيضاً من تاريخ الأمة وحضارتها.

وينطلق البديل الأول من الدعوة التقليدية إلى التضامن العربي، وإلى تفعيل المؤسسة القومية، جامعة أدول العربية ومنظمات العمل المشترك، وإلى تنشيط أجهزة الأمن القومي في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدفاعية. وهي دعوة تلقى التأييد والدعم ويضيق منها التنفيذ والتطبيق. ولعل أحد الأسباب في ذلك يتمثل في أن حالة العجز التي يعاني منها الوطن العربي في المرحلة الراهنة كنظام إقليمي، تعود إلى افتقاره للرؤية المستقبلية الواضحة، وغياب أية مبادرات جماعية لوضع استراتيجية محدّدة المعالم والأهداف، للتعامل مع النظام العالمي الجديد بتطورات المحتملة، وبطريقة تتسق مع المعطيات الجديدة على الصعيدين العالمي والإقليمي، وتحدّد الأساليب المناسبة للتعامل مع هذه المعطيات الجديدة. ويتطلب وضع تلك الاستراتيجية أن تعمل الأقطار العربية على تحقيق أقصى تعبئة جماعية لكل ما تملكه من عناصر التكامل، ومقوّمات التقارب القومي الفعال في إطار صيغة مناسبة تحقّق الضمانات الكافية لأمنها القومي ومصالحها الحيوية، على أساس التكامل الاستراتيجي القومي الذي يجمع كل عناصر «القوة الشاملة» ويعمل على تعزيزها وتنميتها في النطاق الجماعي، ويضمن مستقبلاً أفضل للأمة العربية وحماية أكثر كفاءة لأمنها ومصالحها.

لا ريب في أن الحديث عن التضامن والقدرات العربية الجماعية، وإمكان تجميعها وحشدتها وتنظيمها وتوجيهها نحو هدف قومي واحد يبدو حديثاً قديماً ومكرراً، أو أنه ضرب من الأمنيات الطيبة والنّيّات الحسنة التي لا يمكن أن تتحقّق. ولكن الظروف والتطورات الجارية والمقوّمات المتوافرة والدلائل المتصاعدة لتفتح الإدراك العربي والوعي بطبيعة الظروف والتحديات التي نواجهها، تجعل لهذا الحديث أهمية كبرى، إذ لم يعد مثل هذا التفكير ترفاً أو خروجاً عن الواقع، لأنه أصبح هو الضرورة بعينها

للخروج من المأزق التاريخي العربي الراهن.

هذا عن البديل الأول، الذي يرتبط نجاحه وفشله بإرادة الدول العربية، وهي إرادة تبدو، حتى اليوم، غير مرشحة للتوافر والفعل. أما عن البديل الثاني، فصفته أنه لا يرتبط بإرادات الدول، بقدر ما ينبعث من إرادة الأمة والقوى الفاعلة فيها، وبخاصة قوى الفكر والثقافة والإعلام، ذلك أن هذا البديل ينبثق من صراع الحضارات، وهو صراع قديم جديد، ولكنه يتعلّق، في نهاية المطاف، بقدرة الأمة على الفعل والعزم والحسم، وعلى مجابهة التحديات الراهنة والمستقبلية، لكي توفّر لذلك الصراع عوامل الغلبة.

ومنطلق البديل الذي نتحدث عنه هو اعتبار الصراع العربي - الإسرائيلي شكلاً من أشكال صراع الحضارات. فصاحب هذه النظرية - نظرية صراع الحضارات - صموئيل هنتنغتون علق على إعلان المبادئ الخاصة بغزة وأريحا بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل بقوله⁽²³⁾ إن هذا الحدث «تمّ بين مجموعتين من حضارتين مختلفتين ظلّتا تتحاربان ما يزيد على أربعة عقود. وتعدّ الهدنات والاتفاقات المحدودة جزءاً من الصدمات بين الحضارات... وفي حين أن النزاع بين اليهود والعرب قد يمكن تطويقه، فإنه سيظلّ مستمراً». وقد استوحى وزير الخارجية الأميركي من هذه المقولة رأيه⁽²⁴⁾: «نحن لن نصل إلى نهاية الصراع في الشرق الأوسط، ولكننا نغيّر شكله».

وفي صدام الحضارات قد لا تذوب مجموعة بشرية ذات حضارة متخلفة، وقد لا تندثر، ولكنها على أي حال لا يمكن أن تكون الأعلى والأكثر تفوقاً، وإنما تكون الغلبة للحضارة الأقوى والأكبر والأرسخ تاريخاً والأشدّ تجذراً والأكثر عدداً. وحينئذ لا تعود الأرقام وموازين القوى المادية فائقة القدرة والثبات، وصاحبة الغلبة والتفوق، لأنها تفقد الجذور في التاريخ والجغرافيا والحضارة. وبهذا المنظار، لا يُختزل الصراع العربي - الإسرائيلي في عملية التسوية السلمية القائمة الآن، ذلك أن عملية التسوية هذه ليست سوى حلقة أو مرحلة يمر بها هذا الصراع الممتد منذ ما يقرب من قرن والذي اتخذ أشكالاً عدّة، وسيتخذ أيضاً أشكالاً أخرى في المستقبل. والتصور الذي يجسّد عملية التسوية الجارية بأنها تحتوي هذا الصراع بكلّ أبعاده، هو خطأ في الرؤية الفكرية والسياسية والتاريخية والحضارية، وهو انزلاق نحو النهج البراغماتي الأميركي، الذي يتعامل مع الواقع المباشر من دون اعتبار لأثر الماضي الذي أحدثه، وتأثير ذلك في المستقبل، إذ لا يمكن فهم الصراع العربي - الإسرائيلي بهذه المقاييس العملية البراغماتية. وكل محاولة لتغيب أبعاد هذا الصراع التاريخية والمستقبلية والحضارية لن تكون سوى عملية سياسية أساسها موازين القوى المادية الراهنة.

(23) فصلية Foreign Affairs، نيويورك، المجلد 72، العدد 5، 1993.

(24) محجوب عمر: مجلة شؤون الأوسط، العدد 30، حزيران/يونيو 1994، بيروت، ص 78.

إن الصراع العربي - الإسرائيلي هو في أحد أشكاله صراع حضارات: صراع بين الحضارة العربية الإسلامية وبين التجمع البشري اليهودي الذي بعثت به أوروبا والغرب والصهيونية والحضارة الغربية اليهودية - المسيحية بهدف السيطرة على هذه المنطقة من العالم. وعلى هذا فالمواجهة مع إسرائيل هي مواجهة لحضارة الغرب ومذاهبه، بمثل ما هي مواجهة للعقيدة الصهيونية الوليدة الشرعية للاستعمار الغربي، إذ ليس لليهود حضارة محدّدة، وإنما لهم دين ومذاهب، فهم موزعون على مناطق العالم وحضاراته منذ آلاف السنين.

ومن أجل تجنب هذا الصدام الحضاري، ثمة في إسرائيل توجهان رئيسيان، أولهما يقول به بعض قادة الصهيونية ومؤسسي إسرائيل، ومبناه إنزال البعد الحضاري مكانته في دائرة الصراع، ما يعني ضرورة اندماج إسرائيل في منطقتها الحضارية، حتى إن بعضهم أوصى بتعليم أبنائهم اللغة العربية. أما التوجه الثاني فتقوده مجموعة أخرى من قادة الصهيونية العقائديين، ويمثلهم اليوم بنيامين نتنياهو وطائفة من الأحزاب والمنظمات السياسية الصهيونية والدينية. وينادي أصحاب هذا الاتجاه بالإبادة والتهجير والتدمير والاحتلال والتوسع واحتكار السلاح النووي.

إن العقيدة الصهيونية هي نتاج الحضارة الغربية. والّاخذ بهذه الفكرة يجنبنا خطيئة الانزلاق نحو هاوية الصراعات ذات الطابع الديني، ومن ثم تشويه التاريخ العربي الإسلامي كله، وتحمله ما ليس فيه ولا منه.

وينتسب إلى صراع الحضارات تلك القدرة على الحركة والفعل والإمساك بزماء المبادرة. ومن هذا القبيل لنا أن نلاحظ أن الحراك الإسرائيلي، بفضل دعم القوى الصهيونية والدولة الراعية الولايات المتحدة، يتميّز بالمرونة وتعدّد الخيارات الأساسية، وفيها انتهاك أسس عملية السلام وخرق الاتفاقيات والاستهانة بالشرعية الدولية، حتى بلغ الأمر بإسرائيل حدّ التهديد باستعمال القوة المسلحة. وقد وقرّ ذلك كله لإسرائيل عناصر القوة والفعل وتعدد السياسات والأهداف والمواقف والخيارات. وفي حين اتسعت ساحة الحركة والفعل والمناورة أمام إسرائيل، ضاقت تلك الساحة أمام العرب، حين جعلوا خيارهم وحيداً لا ثاني له ولا بديل. ولقد تمّ ذلك، أي اتساع الساحة الإسرائيلية وضيق الساحة العربية، في ظل العوامل والظروف الإقليمية والدولية التي أشرنا إليها، وبخاصة اختلال ميزان القوى اختلالاً جد كبير لمصلحة إسرائيل وضداً على العرب.

ولا نقصد بتعدّد الخيارات أمام العرب أن يكون أحدها ضدّاً على السلام، وإنما نقصد إلى أن تكون رسالتنا إلى المجتمع الإسرائيلي حاملة تأكيداً عملياً مبناه أن خيار السلام مع العرب - وهو الخيار العربي - نتائج يعمّ خيرها الجميع، وأن خيار اللاسلام مع العرب - وهو الخيار الإسرائيلي الراهن ذو البدائل المتعددة - تكلفة غالية، وأن لنا من القدرات والإمكانات ما نجعل هذا الخيار أو ذاك أمراً واقعاً.